القيم الأخلاقية في الأعمال الشعرية الكاملة لـ(محمود مفلح)

د. رائد مصباح الداية*

تاريخ الوصول:٢١/ ٤/ ٢٠٢٠م تاريخ القبول: ١٢/ ٧/ ٢٠٢٠م

الملخص

الشعر صورة تعبيرية متحركة ملونة متسقة موسقة يحتويها مشهدٌ مؤثر ذو وهج وصدى في النفس الإنسانية، يصوره الشاعر بألقه وحسِّه ووجدانه وأفكاره وخيالاته، ويقف على أنغام الحياة فيبثها من عمق الروح بكلمات شاعرية عميقة المعنى، ويطل من أشعاره على قيم أخلاقية نبيلة التي تُستقى من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وأعراف المجتمع النبيل، والتي تُلقي ظلالها على أفعال الإنسان وأقواله فتقربه من ربه، ومجتمعه، وتجعله صالحًا في الحياة، يقوم بما يجب أن يقوم به كلُّ سوي، هذا ما سطَّره الشاعر الفلسطيني **(محمود مفلح)**، من خلال إيمانه بأهمية الأخلاق في الحياة، وتطلعه للآثار التي تنتج عنها، يقدمه تحت ظلال مشهد قيمي أخلاقي يلامس الواقع، معبرًا عن تجربته وانغماسه في أيقونة من الأخلاق ودماثة الصفات، واستطاع أن يجوب بقصائده تلك القيم التي احتلت في النفوس مرقدًا، ساعيًا ينادي لها بين الناس بحبٍّ وتفاؤل.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، القيم، الشعر، محمود مفلح.

* باحث، عميد المكتبات وأستاذ البلاغة العربية، جامعة فلسطين-غزة.

The ethical values in the complete poetic works of (Mahmoud Mufleh)

Abstract

Poetry is a colorful, consistent, coordinated, animated expressionist image of a poignant scene with glare and resonance in the human psyche. The poet depicts him with his brilliance, shine, sense, conscience, thoughts and imaginations, He stands on the rhythms of life which is awarded from the depth of the soul in deep poetic words. His poetry overlooks noble moral values that are derived from the Holy Quran, the purified Prophet's Sunnah and the Usages of noble society, which casts shadow on man's actions and words, bringing him closer to Allah, his community, and making him good in life, doing what everyone should do, This is what the Palestinian poet (Mahmoud Mufleh) underlined, through his belief in the importance of morality in life, and his view of the consequences that result from it. He presents it under the shadow of a moral value scene that touches reality, expressing his experience and immersion in an icon of morality and suavity of qualities, He was able to roam his poems those values that have occupied the eminent place, seeking to appeal among people with love and optimism.

Keywords: Ethics, values, poetry, Mahmoud Mufleh

تقدمة:

إنَّ الاشتغال بالكتابة الإبداعية التي يحركها الوجدان رائعة من الروائع، وجميلة من الجمالات، وإنَّ الأكثر جمالًا تلك الكتابة التي تفيض فيها الوجدانيات، وتنتشي من داخل الحس والشعور، وهي في حدِّ ذاتها كتابة تتعاظم فيها معالم الإبداع، وتتسامى إلى عالم مبدع فاتن، وإنَّ من الشعر لسحراً، يحاكي الواقع العربي المعاصر، ويقدم قراءة عن إيقاعات الحياة التي لا يستطيع الشاعر أن يتوارى عنها، أو أن ينسل منها، في ثوب تجربة معاصرة ومتقدمة، وهو في الوقت ذاته شعرٌ نفاذ، عميق الجذور والهوى والقيمة...وتلك تجربة أحد الشعراء العرب الفلسطينيين.. شعراء الصف الأول بامتياز...شعراء

الطليعة الذين عاشوا نكبة فلسطين سنة ٤٨م بتفاصيلها، وحيثياتها، وملابساتها التاريخية، وظروفها الأخلاقية، فبقيت جذوتها في نفوسهم، حتى أثرت في سلوكهم، وما تزال تسبح في أعماق أعماقهم، وتصرفاتهم. وإنَّ الشاعر الفلسطيني حمل أمانة الكلمة، بكل زخمها الإيجابي، ومأساتها، وجبهاتها، وميادينها؛ فتكلم لا عن هوى أو جهل، وأفصح دونما تعقيد أو زلل، وأجاد في تصوير الحقائق والوقائع بألوانها وأنساقها، فأبان عن جمال الأخلاق، وكشف عن كثير من محاسن النفوس، وجماليات الألسن، وما زال هذا دأب الشاعر الفلسطيني، الذي لم يتجاهل بدوره بناء الفرد والأسرة والمجتمع؛ بل كانت له كلمة مليئة بالحرص عليهما، ممزوجة بالحكمة، محلاة بجمال الأسلوب، فخرج ناصحًا أمينًا تارة، وواعظًا مرشدًا تارة أخرى، ومبدعًا فنَّانًا متألقًا، فاستعان بقدرته الفائقة في التعبير، فمرة صرَّح بلا مواربة، وأخرى رمَّز دون تراجع، وثالثة زيَّن الخطاب وجلله بالنافع المفيد، والأسلوب الرشيق، حتى كشف بذلك كله عن تجارب عدة، غير متجاهل أنَّ ذاك مطلب إنساني ملح. لقد اشتغل الكثير من الشعراء الفلسطينيين ببناء المجتمع سلوكيًا وأخلاقيًا وسياسيًا ودينيًا، والشاعر (محمود مفلح)، واحدٌ من أولئك الشعراء الذين ما فتئوا ينشرون القيم النبيلة، ويذيعونها بالأسلوب الجميل العذب، والعبارة السهلة، والصورة الملونة المتناسقة، والموسيقى المناسبة، فتحدث عن القيم الأخلاقية وأمدها بأصولها من القرآن الكريم، والهَدْي النبوي القويم.

أهمية البحث:

إنَّ القيم الأخلاقية ثمرةٌ كريمة تنشدها النفوس السامية، والضمائر النقية، والعقول الرشيدة؛ وتطبيقها من جهة الفرد والأسرة والمجتمع يُعدُّ دالةً من دلالات الخير، وأمارة من أمارات الفلاح، وعلامة من علامات النهضة، والتحلي بها جميعًا مطلبٌ من مطالب الدين، والتزين بفرائدها آيةٌ من آيات الجمال، فمن العقيدة الصحيحة يستقيم الفكر، ومن الإيمان بالله يطمئن القلب، ومن العبادة القويمة على منهاجه سبحانه يعتدل السلوك، وتحسن الأفعال، فضلًا عن أنَّ ذلك كله يقود الفرد والجماعة إلى السعادة في الدارين، الدنيا والآخرة؛ لذا كان هذا البحث.

أهداف البحث:

أولاً: الوقوف عند القيم الأخلاقية بصورتها الجمالية كما رآها الشاعر، وجلَّاها بثوبٍ أدبيٍّ مبدعٍ أخاذ.

ثانياً: التأكيد على ما يشغل الأديب الفلسطيني في الغالب من قضايا الدين والوطن والأخلاق؛ لكونه الذي يدلل بوضوح على مستوى التميز في النزاهة والاستقامة عند الفرد والأسرة والمجتمع.

ثالثًا: حصر الكثير من القيم الأخلاقية، التي استمدت أصولها من مصادر الدين في القصيدة الفلسطينية، والتأكيد على أهمية حضورها في المجتمع الفلسطيني.

منهج البحث: اعتمد الباحث المنهج التحليلي؛ للوقوف على أشكال القيم وصورها، وأبعادها، وجمالها.

تعريف القيم: القيم واحدتها القيمة، فعله: يُقيم، وماضيها: قيَّمَ، وأصله الواو؛ لأنه يقوم مقام الشيء. فالقيمة: ثمن الشيء بالتقويم، تقول: تقاوموه فيما بينهم([1])، وما له قيمة إذا لم يدم على شيء([2])، وتطلق القيم على الفضائل الدينية والخُلقية والاجتماعية التي تقوم عليها حياة المجتمع الإنساني([3]).

القيم اصطلاحًا: هي "جملة من المقاصد التي يسعى القوم إلى إحقاقها متى كان فيها صلاحهم، عاجلًا أو آجلًا، أو إلى إرهاقها متى كان فيها فسادهم، عاجلًا أو آجلًا"([4]).

القيم الأخلاقية: هي مجموعة من المبادئ والضوابط التي تُحدّد سلوك المؤمن تجاه ربه، ثم تجاه الكون بما فيه.

أشكال القيم الأخلاقية: تتمثّل في التحلي بالسلوك الذي أقره الدين الإسلامي، وتعارف عليه المجتمع الفلسطيني المسلم المحافظ، وذلك في معاملة الإنسان لنفسه، وربه، والناس من حوله، والالتزام بالقواعد والقوانين التي تنشأ للمحافظة عليه، والقيام بالواجبات المطلوبة منه، **وأبرز أشكال القيم الأخلاقية، يوجزها الباحث فيما يلي:**

القيمة الأولى: صفاء النفس الإنسانية

إنَّ الشاعر يكون عادة في تأمل معاناة الإنسان، يحاول الوصول إلى أغوار نفسه التي ينعكس عليها الواقع الأليم الذي يرفضه، وهو يحسُّ إحساسًا عنيفًا بوقع الزمن([5])، ولم يعجز الشاعر في قصائده عن سبر تلك الأغوار غير مكتفٍ بالنفس؛ بل درج إلى العقل الذي هو منبت الأفكار، وبافتخار تبدأه الجملة الاسمية أشار إلى ذلك المخزون الفكري المتمثل بالعقيدة

الإسلامية الفذَّة، وإلى المنهج السليم المكتمل، بما يحتويانه من إيمانٍ، وفكرٍ، وتشريعٍ، وسلوكٍ، وأركانٍ، وتفريعاتٍ؛ لأن تلك العقيدة تغطي حاجات الإنسان في معاشه ومعاده على السواء. فحُقَّ الافتخار بتلك العقيدة الجامعة الشاملة المانعة، التي حكتها سورتا الفتح والأنعام. **وفي قصيدة (اعتذار)**، التي يحاول فيها التأكيد على سُمُو العقيدة الإسلامية السمحة، بما تحمله من نفحاتٍ روحانية، ووجباتٍ تغذية نفسانية، فتعلو بذلك على العقائد الأخرى، وهي في الوقت ذاته ليست مكانًا للأمراض والمرضى الحاقدين، **يقول:**

أين من تلكم العقائد دينٌ
ربُّه الله... والرسول الأمين
ليس فيها للحاقدين مكانٌ
ليس فيها الجذام والطاعون[٦]

عبر المفارقة التصويرية يحاول الشاعر استظهار العقيدة الإسلامية مقابل العقائد الأخرى، فلا تفاضل بين عقيدة التوحيد وغيرها، فقد عرض في الصورة الأولى عقيدة التوحيد مجسمة بالكمال والتمام في الحسن، كونها جاءت من الله تعالى الأعلى الكامل المنزه عن النقائص، ونزلت إلى رسول الله ﷺ فبلغها بأمانة دون تغيير أو تبديل أو تحريف، وفي المقابل تجاهل عرض صورة العقائد الأخرى؛ لكن سياق الحال لم يتجاهلها حتى فهم منه نقص منهجها، وسقم حالها، ثم انتقل إلى عرض الصورة الثانية التي تظهر العقيدة الإسلامية حياة مَن آمنوا بها أنها أقرب إلى النرجسية السعيدة، يفوح عطر جمالها، وطهرها، وفي المقابل تظهر صورة العقائد الأخرى الملآى بالكدر والتعاسة، ثم انتقل إلى الصورة الثالثة التي أبان فيها أنَّ العقيدة الإسلامية لا مكان فيها للحاقدين، ولا للمجذومين والمطعونين، في إشارة إلى الصورة المقابلة التي تسمح فيها العقائد الأخرى بوجود البطالين والحاقدين والمعتلين، ثم ينتقل الشاعر عبر المفارقة التصويرية نفسها إلى الكشف عن أفضلية العقيدة الإسلامية أمام العقائد الأخرى التي يؤمن بها كثير من العقلاء ظنًا منهم أنها الأفضل، فيقول:

هي أنقى من النقاء وأصفى من دموع
يبيحها الزيتون
وأضاءت جباهنا بعد ذلٍّ
وتخلت عن لفظها (حبرون)[٧]

تستمر المفاضلة بين الخيارات السامية، بين العقيدة ونقاء الدموع وصفائها، ولم تكن المفاضلة بين نقيضين، أو متعارضين،

ولم تكن مع العقائد الفاسدة، التي تشرعن الباطل والظلم والجور والفساد؛ إنما مع النقاء نفسه، فعقيدة التوحيد أنقى من النقاء نفسه، وأصفى من الصفاء عينه، فليتنا نعيد القدس بالعقيدة، وتسير جيوشنا حطين من جديد؛ لتضيء جباهنا بعد ذلٍّ وانكسار، وتتخلى عن لفظها حبرون. **وفي قصيدة (الأيدي الآثمة)، يقول:**

أيها الوجه المغامر
يا سليل الحقد يا رمز المجازر
إنَّ ربَّ النَّاس قادر
أنْ يُحيل الشوك في أرض الملايين ورودا(٨)

إنَّ كثافة الإحساسات تجعل الصور الاستعارية ذات طابع رمزي. فهي استعارات بعيدةٌ ومعقدةٌ تعددت أبعادها(٩)، فبعد البدء بصورة العدو القبيح في ثوبٍ استعاري يطل بوجهه المغامر العابث يطالعنا الشاعر بتقانة الاسترجاع إحدى تقانات الزمن يسترجع من خلال ذاكرته أولئك الذين قضوا من أصحاب الرايات السوداء والعقائد الفاسدة، يستدعيهم إلى حاضر المسلمين اليوم، ومع ذلك هو يستشرف لهم مستقبلًا يكون كفيلًا بالقضاء على تلك الطغمة؛ ليجدوا مصرعهم من جديد في مشهد دامٍ، وإن كان الشاعر في بداية القصيدة قد نفض يديه من الواقع الذي خذله، ولم يعد يثق به، ولا بمن يمسك زمامه من الحكام والناس؛ محاولًا تغيير الشر، وإبدال الظلم، ووأد الفتن، موقنًا أنَّ تحقق ذلك إنما بالعودة إلى ربِّه؛ إيمانًا منه أنَّه مصدر القوة، ومانحها، وموجهها، وإدراكًا منه أنَّ الله تعالى لا يعجزه حقد حاقد، ولا سفك سفَّاك، ولا بطش باطش، فهو يهلكه كما أهلك المتجبرين في الأرض من قبل، فقدرته تخلق من الشيء ضده، فالشوك يخرج منه الورد، وفرعون الطاغية قاتل الأطفال ألقى الله تعالى إليه موسى عليه السلام خصمه؛ لينبت تحت عينه، فأهلكه وأتباعه، واجتث جنوده؛ ليعيد للأرض والوطن الأمن والسلام والحب بقدرته عودًا حميدًا دون أن يعيق أمره عائق، أو يعجز إرادته شيء، وتتجلى هنا قيمة الإيمان بالقدرة الإلهية في إزهاق الباطل مهما كانت قوته وجبروته، وبلغت عنتريته وصلفه وغروره، فيستحضر شخصية فرعون؛ ليقرر حقيقة أن الباطل هو هو يعاود بأثوابه وأشكاله ووجوهه في كل وقت، ثم لا يلبث حتى يستعلي عليه الحق، وهذا ما انتهى الشاعر إليه. **ويقول الشاعر في قصيدة (يا إلهي):**

يا إلهي أعطني وجهًا...ونورا
كـي أفـلَّ الزَّيـف...كي أنسـف هاتيـك الجسورا[١٠]

نداء ممدود موشح بصوت بتموجات الألف المتكسرة الجميلة التي انتهت بها أبيات القصيدة، يبتهل المسلم إلى ربه؛ طالبًا بافتقارٍ عطاءً لا يجسر أمام الحياة إلا إنْ ناله، ويطلب أن يمنحه وجهًا من السماحة، والبراءة، والنقاء، والبياض، والنور، كما يطلب أن يعطيه الإيمان وخُطا الراشدين، وأن يزحزحه أسقام الهوى، ويجنبه غرور النفس الذي يهيئ له الشرَّ خيرًا، قال تعالى: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣]، و﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرحُونَ بما أَتَوا ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهم بِمَفازَةٍ مِنَ العَذَاب وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران: ١٨٨]، ويلتجئ الشاعر بثوب الحياء الخفي إلى ربِّه طالبًا منه إطلاق القوة العظيمة فيه، تلك القوة التي تبلغ زئير أسدٍ يشعر بالزهو، ويحسُّ بواجبه تُجاه دينه؛ ليستطيع نصره، فيفلَّ زيف الباطل، وينسف أركانه وجسوره ومدده.

إنني ضقت بأبناء الدجى...ضقت كثيرا
إنـني ضـقت بهم...صـمًا وعميانًـا... وعـورا[١١]

تشير التجربة الشعرية إلى أنَّ المبدعين يجمعون بين المحاور الدلالية المختلفة، وطاقاتها الإيحائية، فالشاعر تارة يُطعِّم هذا النتاج ببعض الرموز العقدية، التي تتضوع منها الأخلاق في براعة تامة[١٢]، وما زال الشاعر يلتجئ إلى ربه في قوة وإصرار، مؤكدًا مرددًا أنه ضاق كثيرًا بكلِّ ما تحمله الليالي من فتن وافتتان، وشر وسوء، وقد حمل **(الدجى)** معه الظلمة وحلكة السواد، كاشفًا عن حقيقة من رآهم أو اختلط بهم، ما هم إلا زمرٌ من العميان الذين لم يبصروا طريق الهداية، ولم يعرفوا سبل النجاة، ولم يدركوا عظمة الالتجاء إلى ربهم، ولا لذة القرب منه، وهم صمٌّ عن سماع أي كلمة تقربهم من خالقهم، أو تتحدث إليهم عن حقه عليهم، وافترق الشاعر عنهم وما زال العوار يتلبس نفوسهم وعيونهم وآذانهم. وفي ذلك إشارة إلى سرٍّ ما حظيت به نفسه من الراحة والدعة عند التجائه إلى ربه، فقد زال الإحساس الذي ماثل إحساس أصحاب الليالي والدجى. وما زال الحوار قائمًا بين العبد وربه، ويحاول الشاعر تعميمه؛ ليشمل مَن يُحب؛ ناصحًا محبًا،

حتى يتم الاعتماد على الله، والتوكل عليه – سبحانه، **ففي قصيدة (يا نفس)**، ينفث الشاعر بحرصٍ ونُصحٍ ومحبَّةٍ معاني الصلة بالله، والالتجاء إليه، **فيقول:**

قل: توكلت على الله وسر
حسبك الله قويٌّ مقتدر
أو رؤى نفسٍ، وما أتعسها
حينما تستمرئ النفس البطر(١٣)

أمرٌ مزيَّنٌ بالنصح، ومحمولٌ بالشفقة، ومحفوفٌ بالدعوة إلى التوكل على الله – **تعالى** – في أثناء السير، فيكفيك الالتجاء إليه، والتوكل عليه؛ لكونه ربٌّ قويٌّ مقتدرٌ، محذِّرًا من الاغترار بعمل الشيطان والهوى، مشيرًا إلى كثرة الشياطين على الطريق، وتداعي رؤى الهوى في السبيل، فما أسوأ الحياة التي يستمرئ فيها الشيطان الهوى النفس، عندئذ تتبطر عن تتبع الخير، وتكتفي بهما عن إدراك حقيقة الوجود. **وفي قصيدة (الحمى)**، يتضرع إلى الله تعالى، ثم يبث شكواه له فيشكو من سوء النفوس وشرها في هذا الزمان، واصفًا تغيُّر الأحوال:

أنهكوا الأنفس إسفافًا وآذوها فجورا
يا إلهي أعطني قلبًا كبيرا(١٤)

حقيقة مُرَّة يعلنها هنا حسبما يطالعها أو وفق ما تتراءى له، يشكوا مسبيها إلى الله تعالى، فإنَّهم أنهكوا النفس بالتبعات، ورؤى الفساد، وأعمال الفجور، فوجهوا إليها ما ألهاها، وأمرضها، وأسقمها، وآذاها، وحولوا فطرة الله التي فطر الناس والكون عليها إلى غابٍ وحُفرٍ جحورٍ، فما عادت ملامح النفس الإنسانية تحظى بطبيعتها، ولا الكون استقرَّ على حاله البريء من اللوثات، فقد غيَّروا كلَّ شيء، ثم يعترف بالعبودية وأنَّه جاء إلى باب ربه راجيًا له، مستجيرًا به، طالبًا منه الرحمة، وأن يشمله بعفوه، وأن يمنحه قلبًا كبيرًا يستوعب جمال قربه، ويستوعب الالتجاء إلى جنابه في صفاء ونقاء، فهذا هو سرُّ القدوم إلى باب الرجاء. **وفي قصيدته (يا نفس)، يقول:**

إنَّها الأنفس من يطلقها
في الفضاء الرَّحب من هذي الحفر
مَن يسوِّيها على فطرتها
تعشق الصبح، وللصبح خبر
من يزكيها ومن يسمو بها
فوق هذا الدون... هذا المنحدر(١٥)

يؤكد غائبًا بهاء الضمير، ثم يفاجئ قارئه بحضور **(الأنفس)**، راغبًا بأسئلته

المتواليـة الـتي بـدأها عمَّـن يـتمكن مـن إخراجها من الزلات والآثـام والحفـر الـتي وقعت فيها، وعن الـذي يقـدر أن يرجعهـا إلى فطرتها، وينتشلها مـن عبثهـا، والضـياع الذي لحق بها، ويجعلها نقية كالصباح، بريئة لم تختلط بشـيء كولادتـه، وعمَّـن يسـتطيع تزكيتها، والأخذ بيدها نحـو السـمو، بعيـدًا عــن الوضــاعة والدونيــة، والمنحــدرات؛ لكونها لو خرجت مما هي عليه إلى ما أحبـه لها بأن تكون عليه؛ سـعدت، وفـازت. **وفي قصيدة (حي على الفلاح)، يقول:**

فلنغسل النفس مما... عـــــرا من الأدران
مما جنته يدانا... في حضرة الرحمـــن[١٦]

فعل الأمر يتردد طالبًا غسـيل الـنفس ممَّا أصابها من لوثـات الأعمـال والأقـوال، ومن وعكات الأدران والمآخذ والسـقطات، ومما جنته اليدان من بطش وسلب واعتـداء واغتصــاب للحقــوق، داعيًــا إلى حضــرة الرحمن، بنفس صوفية زاهدة عن دنيا الشر، راغبة في عاقبة الخير؛ لتأتي صفة الله الرحمن حافةً للنفس، ضامةً لها، مستوعبة التوبة من اللمــم ومــا اقترفتــه الأيــدي واجترحتــه النفس، وإنَّ معظم الشعراء الـذين تزهـدوا بعد حياة آثمة - إن لم يكونـوا جميعًـا – قـد أسقطوا شـعرهم الـذي يعـبر عـن حيـاتهم اللاهيــة، ولم يبــق لهــم إلا شــعرهم الزهدي"[١٧]، من مثل قوله:

فاتق الله قبل فـــوات أوانٍ
سوف يغدو فيه الشراب حميمـــا
والبس الطهر في الحيـــاة رداءً
واتخذ طاعة المهيمن زيّـــا[١٨]

فعل **(اتق)** يعاود من جديد أمره التحذيري بـلا ملـل، ويـردده مـن نبـع حـبٍّ وشـفقة وأمل، مشيرًا إلى ضرورة انتهاز الفرصة قبل أن يفوت الأوان، وتمضي الأيـام، وقبـل أن يكـون الحمـيم شـرابًا، والجحـيم مكانًـا، ويعاود من جديد أن يأمر ناصـحًا بضـرورة لبس الطهر والنقاء رداءً للأخـلاق، واتخـاذ طاعة الـرحمن المهـيمن علـى الـدارين ثيابًـا يتزينُ بها.

القيمة الثانية: الشجاعة والبسالة

في قصـيدة **(الجهـاد الكـبير)**، يتجلـى التحدي في أبهى صوره، **يقول:**

لا نبالي بالسجن ما دام فيـــه
عزة المؤمن القوي الجســـور
مَن يقاضي الطغـاة إن لم نحكم
سيف إسلامنا بكل كفـور[١٩]

صـورة حقـل الشـجاعة المصـحوبة بالتضحية التي احتوتها القصـيدة **تتفـرع إلى**

الأفعال: (لا نبالي، يمنح الضياء، يحيل الهجير عطرًا، تهاوت الصواعق، يقاضي الطغاة، نحكم سيف إسلامنا)، وصورة أخرى لا تقلُّ إيحاءً عن الأولى، التي تحمل دلالة الشجاعة المصحوبة بالتضحية، **في الأسماء: (عزة، المؤمن، القوي، الجسور، النفير، أعاصير، سلاحي، التحرير، خيولي، الميادين، الصواعق، الصخور).**

وكبرنا واستحال الدمع في العينين نارا
وعرفنا نكهة الرفض وحاصرنا الحصارا[٢٠]

رغم ضمير الجمع الفعلي **(كبرنا)** لم نغيِّر ولم نبدِّل؛ بل ازددنا ثباتًا تلو ثبات، وتحولت دموعنا براكينًا ونارًا، وبضمير الجمع الفعلي **(عرفنا)** لم تغب عن إحساسنا نكهة الرفض لكل ما هو جائرٌ ظالمٌ، فثبتنا؛ بل تقدمنا وتجرَّأنا على محاصرة الحصار.

وخطونا الخطوة الأولى وحطَّمنا الجدارا
فإذا بالأرض تخضر يمينًا ويسارا[٢١]

وفي قصيدة (شكوى)، يقول:

أين الفوارس ممن كان صوتهم
يزلزل الأرض باسم الواحد الأحد
وكان لي راية كالنسر شامخة
وأمة مثلها الأقدار لم تلد[٢٢]

إنَّ ملامح الشخوص الإسلامية التي أشار إليها الشاعر تتواشج مع رؤيته ونفسه وإحساسه، الشيء الذي يكشفه شعره، بلغته، وثقافته، وعنوانات قصائده، وأسلوبه، الذي هو لسانٌ مستقلٌ بذاته، جذوره أساطير الكاتب الذاتية وأسراره، ويَبين ذلك عندما بدأ يُسائل نفسه ومَن حوله عن زمنٍ يصف أصحابه **بـ(الفوارس)**، مسترجعًا صفات الفوارس الذين يرهبون عدوهم بأصواتهم دون الحاجة إلى أن يشرعوا في إخراج سيوفهم من أغمادها، فأصواتهم التي تصدح بالقرآن والحق لكافية أن تدفع في قلوب عدوهم الرهبة والخوف منهم، وقد تسلح من أجل هذا الاسترجاع بالفعل الماضي **(كان)**، الذي تردَّد ثلاث مرَّاتٍ؛ ليدلَّ على الكينونة والوجود وعدم استحالة رجوع قوة الماضي، كما يدلُّ على الأثر البالغ للفوارس الماضويين في نفس الشاعر، ثم تبدأ ولادة الجيل نفسه أو شبيهه من جديد؛ فتزلزل الأرض تحتهم بكلمة التوحيد، وكلمة الله أكبر، وهي تخرج في الفضاء الرحب؛ فتصب المزيد من الخوف والرعب

فيهم، ويأتيه الجواب الجمعي على هيئة حوار، وقد أجاب هو قبلهم، مفتخرًا بيوم الإسلام الذي انتشر في الآفاق، وبلغ كلَّ قطر ومصر، حتى عمَّ ما طلعت عليه الشمس، وشمخت رايته وعلت في زهو نسر، فكانت أمة الإسلام فريدة مميزة، لم تلد السنون أمةً تضارعها في سماتها الرائدة. وما زال الفَخَار بكلمة **(الله أكبر)**، شعورًا جميلًا، وخطابًا مميزًا يتسلَّح به الشاعر؛ لتزكية نفسه من جهة، ودفعًا لكل ما ينغص عيشه من جهة أخرى، فالتعبير عمَّا يُداخله من فرحٍ وسرورٍ بهذا الخطاب الجميل، تتفاعل معه وتؤكده تلك القافية التي أطلقت الألف، فبمثل تلك القوافي "يتحرك مدُّ النفس بالصوت رغبة منه في إيصال صوته إلى الغافلين؛ لإيقاظ مشاعرهم"[٢٣]، وتتعاظم النغمات بتكرار الكلمات **(خطوة/ خطوة)**، وبتماثل نهايات الكلمات **(خطونا/ حطَّمنا/ يمينا)**، **و(جدارا/ لسارا)**، **يقول:**

وخطونا الخطوة الأولى وحطَّمنا الجدارا
فإذا بالأرض تخضر يمينًا ويسارا[٢٤]

ثم تتجلى الموسيقى الداخلية المتولدة من التوازن اللطيف بين الكلمات **(إخوتي/ إخوة)**، مع تكرار الضمير المنفصل **(أنتم)**، الذي يخصص به ويؤكد قوتهم وحضور مصيرهم، وتكرار كلمة **(مصير) محدثًا بينهما مفارقة عجيبة، فجعل مصير الأولى قوة حاسمة للمصير الأخرى،** ذلك كله يكشف عن إحساس الشاعر المرهف الطَّرِب، يؤكد به المعاني السابحة في أرجاء النص، ومثل ذلك قولهم:

إخوتي إخوة الجهاد الكبير
يا نجومًا تشع في الديجور
أنتم القوة التي تكنس الليل
وأنتم مصير هذا المصير[٢٥]

يلتحم الشاعر بأخوة متينة مع المجاهدين، ولا يكتفي بنسبتهم إلى الجهاد الكبير؛ بل يصفهم بالنجوم اللامعة؛ لكونهم ذوي أثر في الحياة، فهم الذين يزيلون ظلام الحياة، ويسطرون ملاحم النصر والبطولة، ولا تنبض القوافي إلا بسيرهم، وذكرهم، ولا صوت للنسور إلا بوجودهم، فقد أخبر العالم عنهم بأنهم مصدر القوة، التي تكنس الباطل الذي لا يجرؤ أحدٌ على اعتراضه، أو الوقوف أمامه، وهو بهذا يحوِّل القوة إلى يدٍ كانسة، والليل الزماني في صورة متسخة إلى مكان تملؤه القاذورات، ويؤكد أنَّ مصير الأمة متعلق بحضورهم، ومرتبط بوجودهم.

القيمة الثالثة: التحفيز على الخير والمناقب الحسنة

ويحاول **في قصيدة (حي على الفلاح)**، أن يُحفِّز قارئه، ويشجعه، ويأخذه إلى عالمٍ فريدٍ من الصفاء، والمروءة، والقوة، وصدِّ ما يناقضه، وردِّ ما يجابهه، **يقول:**

مـا أطهر النفس لما تصيح للقرآن
جرى فقوَّض عرشًا على ذوي التيجـان[٢٦]

هذا النسق من البناء التعجبي يرسم طهْر النفس المؤمنة التي تصدح بالقرآن الكريم على لوحة متحركة؛ تُغَنِّيه، وتُمَوِّج أصواته، فيكون لها بالغ الأثر، فبها تتعطر الآذانُ من موسيقاها، وتتكحل النواظر من جمالها، وهذا ديدنها في كلِّ زمانٍ، والنفس تصيب من نفحاته الربانية، وينقضُّ عرش الطاغوت وصحبه من قوته وهيبته وسلطانه، فهي تشكل لوحة قرآنية متحركة، تستحضر المعاني والدلالات والإيحاءات ذوات النفحات؛ لتكون مِقودًا وموجهًا نحو تمكين الواقع الذي يتصوره الشاعر، ويرى أنه الأكثر إضفاءً للخير على البشرية. **وفي قصيدة (نحن إسلامنا عظيمٌ عظيم)**، يؤكد أنَّ القرآن هو مصدرُ العزَّة، ومنبعُ الكرامة، ومنطلقُ الهداية، ومعراجُ السمو، وتتموج تلك المعاني مع موسيقى التقفية المدية، فبهما معًا يتجسد موقفٌ داخليٌ للشاعر تجاه ما يكتب عنه، وتعدُّ الموسيقى معادلًا من المعادلات النفسية التي يبوح بها النص إلا لقارئ متدرب(٢٧)، **يقول:**

ظلمة الليل لن تطول علينـا
ولدينـا نبراسنا القرآن
حاولوا حاولوا اغتيال المثانـي
ليت شعري هل يطفأ الإيمـان[٢٨]

إنَّ الإحساس بقيمة القرآن وأثره في الحياة يغمر الشاعر، ويسيطر عليه، وهو بذلك يقدمه في صورة شعرية تتسق ألوانها مع معاني آيات القرآن، لا كما يراها هو نفسه فحسب؛ بل كما هي في واقعها، فهو يتوسم جلاء الظلمة عن الواقع المُرِّ بوجود القرآن الذي كان وما زال قادرًا أن يكون نبراسًا للإيمان والعمل، يبرهن ذلك بحقيقة كونه نبضًا للحياة، وبدونه لا قيمة لها، مواتٌ ضاربٌ في نواحيها وجنباتها، ثم يفقد الشاعر الأمل في اتخاذ الناس القرآن مذهبًا يقودهم في دروبهم إلى مقاصدهم وأهدافهم، فيدفعه ذلك إلى استرجاع الماضي الوضَّاء، المليء بالمحاسن، أيام أن كان القرآن قائد عموم الناس وخاصتهم، وعزَّهم وهاديهم وناصرهم، كان الناس

يوقنون به دونما ريب، معتقدين أنَّ الأخذ بسواه ما هو إلا ضرب من الضلال والخسران، ثم يعاود رسم واقعه؛ ليتحدث عن علاقةٍ واهنة واهية تجمع الناس بالقرآن، ودليل ذلك أنَّ البعض يبحث عمَّا يقوله البشر، يقبلون إليه، آخذين له، رغم لا منطق لهم، ولا لغة متينة لقولهم، مجتهدين في اتهام المثاني من القرآن الكريم باللغط والقِدم، محاولًا تصوير ما يفعلونه بالقرآن من اغتيال للمثاني من سوره، وتصوير الإيمان بالشعلة التي يطفئون شعلتها؛ ولكنَّ شعلة الإيمان لا تنطفئ، ولا تبور، سؤالٌ أنهى به مقطوعته، قصد من ورائه النفي القاطع، كأنه يعلنها بلا مراء **(لا لن ينطفئ الإيمان)**، وحذف منه مكان الإيمان؛ لكونه معلومًا ضمنًا، فهو يقع في الصدور والعقول، فلن ينطفئ الإيمان من الصدور ولا العقول.

القيمة الرابعة: الابتعاد عن النفاق، والترفع عن النواقص

الفارس الحق هو الذي يرعى حرمة الدِّين الذي هو كلمة الله تعالى، والكتاب المبين الذي أنزله إلى الناس فرقانًا، فالذي تمتد يده إلى ما يخرم الدين والمروءة من معاقرة النساء، وريادة المراقص، وانتشاء الخمر، واختلاق الفتن، والتسلح بالجدل العقيم، ومنطق الهوى؛ وصولًا إلى المبتغى ليس أهلًا للتحرير، وهو أعجز في الذود عن القدس، ويمتطي الشاعر صهوة الشعر؛ منافحًا ومدافعًا به عن القدس، وصادًا ورادًّا لكل منافق يُخفي في نفسه ما لا يظهر تجاهها، تلك المدينة التي ما ذكرت في الشعر العربي إلا وتدل على الرفعة والسمو والقدسية والطهر[٢٩]، **ففي قصيدة (الشعر)، يقول:**

يسقط الحرف بالنفاق إذا لم
يتوهج بالطهر والإيمان
شرف الحرف أن يكون مدمًّى
كحسام الشهيد في الميدان[٣٠]

إنَّ من "خصائص الخيال الشعري الأصيل أنَّه يحطم سور مدركاتنا العرفية، ويجعلنا نجفل لائذين بحالة من الوعي بالواقع، تجعلنا نشعر كما لوكان كلُّ شيء يبدأ من جديد، وكما لو كان كلُّ شيء يكتسب معنى فريدًا في جدته وأصالته"[٣١]. وفي صورة خيالية يصور لنا الشاعر الحرف الساكت الصامت الساقط بحرف النفاق، الذي لا يصدح بالدعوة إلى الطهر والإيمان، بينما الحرف المنير الذي يستحق أن يكون سلاحًا هو ذلك الحرف الذي يلتحف

بالحق، لا ذلك الممتلئ بالبهتان، وإنَّ أفضله الـذي يطـاول المجـد، ويـدافع عـن الحـق، ويعانق أهله، ويتزيَّا بـذكر صـفاتهم، وعـدا ذلك يبقى الشـعر لغـوًا لا سـيما إنْ لم يـبن عن إنسانية الإنسان، ولم يـدافع عـن حقـه، فعندئذ سيبقى بلا شـرف؛ لكـون شـرفه أن يكون الحرف شجاعًا، يتكلم بفصاحة وبيان لصالح أصحاب الحق، يجابـه الشـرَّ عـنهم، ويذبُّ عن حياضهم، ويـدافع عـن حـالهم، ويـذيع في الآفـاق أوصـافهم وصـفاتهم، ويستمر الشاعر في المنافحة والدفاع بالكلمة والكتابة.

يـا لخزي الشقي ساعة يأتي
ناصب الوجه... قلبه مـذعور
فوقه ذلـة وخزي وعارٌ
وقتام... فيا لبئس المصير(٣٢)

يبـدأ النـداء بالتحسـر علـى نوبـات الغفلة عن تقوى الله تعالى التي انتابـت مَـن انتابـت، فجعلـت منـه شـقيًا سـاعة يكـون مُقدِمًا إلى ربه من أجـل الحسـاب والجـزاء، فيعبس الوجه، وتبدو عليه أمـارات التعـب والنصب والهم والغـم والكـدرة والصـفرة، ويرتعب القلب وينذعر من هول ما يداخله من أهوال تشخص أمامها العينـان، وتهـيج الأركان، وتعمره ملامـح الذلـة والمسـكنة، ويلحق به العار، ويداهم الخـزي حراكـه في كلِّ موقف، مستخدمًا الفعل الجامـد الـذي يتحجر موحيًا بتحجر المصير وسوئه، وشـر الموقف. وفي المقابل ينعم أهل التقوى وأهل الله تعالى بما لا يخطر علـى بـال، ولا يجـول فيما تحت العقال. ومـن البـديهي أنَّ مخيلـة المتلقـي تتقبـل الصـور الـتي تعـرض لهـا، فتتمثلـها، وتفـترض إمكانيـة وجودهـا(٣٣)، بعـد أن تكـون قـد اقتنعـت بهـا، وآمنـت بحقيقتهـا، وفي تلـك المقطوعـة يسـتدعى الشـاعر غضـبه الـذي يعـانق شـفقته علـى أولئـك التـائهين العـابثين الـذين سـرقهم الهوى من جادَّة الفطرة، وذواهـم الشـيطان عن دروب الخير، وتتابع نداؤه على الشـيخ الذي تجاوز هيبة الحضور، فانشغل بملذاتـه، وتمـادى في شـهواته، أن يتقـيَ الله صـباح مساء، فيكفيه الشيب منـذرًا، يحـرك معـاني الرحيـل عـن الـدنيا في فـؤاده، ويصـرخ باقتراب الأجل من النهاية، ويضـع الشـاعر أمامـه حقيقـة لا تنكـر، هـي أنَّ المـوت سيخطفه من ليالي مجونه، وأوقـات سـوئه، ويطويه إلى أن يحين وقت النشور.

تعصر اللذة الحـرام وتنسى
أنَّ خلف المتاع داءً دوِيـا

أنت في قبضة الإله صغيرًا
وكبيرًا ومحسنًا وشقيا
أنت في قبضة الإله طبيبًا
وأديبًا وعاشقًا عمريا(٣٤)

إنَّ للفن دافعين متلازمين، لا يبرز إلا إذا وُجدا معًا؛ رغبة الفنان في أن ينفس عن عاطفته، ورغبته في أن يضع هذا التنفيس في صورة تثير في كل من يتلقاها نظير عاطفته(٣٥)، وشاعرنا يستمرُّ في حالة التنفيس عبر ما يصدره من موجة غضبه الغالب بدافع الشفقة والمحبة، ذلكم الغضب الذي ألبسه هندام التحذير، فمجَّ به اللذة الحرام الفانية، التي يعاصرها المفتون، مصوِّرًا حقيقتها بأنه لا يبقى منها إلا الإثم الوخيم، وأمارات الخيبة المقيتة ذات الأثر المفزع، وفوات المنافع التي لا تعود، ويُصوِّر في مَعرِض الرفض والتقبيح الأفعال الآثمة التي يرتكبها، وما تخلفه من داءٍ يبقى أثره ولا يختفي، وتفوح عاقبته، ولا تتلاشى، ويبدأ يُذكِّر الإنسان في كلِّ مكان بأنه في قبضة الإله منذ أقامه نطفةً صغيرةً، ثم يستمر في قبضته، وتحت مشيئته كبيرًا، محسنًا، مسيئًا، طبيبًا، أديبًا، عاشقًا، وإنْ بلغ من العشق النرجسية المثالية، كما كان عمر بن أبي ربيعة.

القيمة الخامسة: الحذر من المعاصي:

قد تحولت الأخلاق العربية والإسلامية الأصيلة جهة المعاصي والموبقات بفعل انقلاب الموازين، والمحسوبية، والنظر إلى المصلحة، وانكباب الناس على الرشاوى، وتولية المناصب لغير أهلها، وأثر ذلك في مرافق الحياة، وفي الأدب فصار بذلك الكتاب صورةً ملونة، وتراجع أعلام الأدب، وغلبت صور الممثلين والفنانين والمطربين على الأدباء، حتى صار أصغر **(نجم تلفزيوني)** أشهر من أكبر كاتب، وأصبح أحدث لاعب كرة أعلى من أكبر مفكر، وأخذ الناس بالمظاهر والشكليات وأهملوا الأعماق، وصار كل من ليس سطحيًا على شاكلتهم عدوانيًا منحرفًا(٣٦)، ومن هذا المنطلق أخذ الشاعر يرفع من قيمة الأخلاق والفضيلة، وينبذ ما سواها، وذلك بالدعوة إلى الخوف من الله، وتقواه، مشيرًا إلى آثار المعاصي الوخيمة، **يقول**:

أنت ماضٍ إليه يا أيها الحالم
ماضٍ...وهذه الأحلام
فاتق الله ما استطعت، وحاذر أن تصيب
الفؤاد منك السهام(٣٧)

يُكرِّر حضور ضمير المخاطب بإرادته أو دون إرادته وهو ماضٍ إلى الله تعالى بأفعاله وأحلامه في طرفة عين، دون أن يتجهز لهذا اللقاء، يحمل ما قدمت يداه، وجنت أركانه، وما اقترفت نفسه، من الآثام. وقد سجَّل الملكان كلَّ ما اجترحت جوارحك، واقترفت يداك، ونطق فكَّاك، وقد استمد المعنى **من قول الأعلى: ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد﴾**، فتقوى الله تعالى قدر الاستطاعة مخرجٌ من تلك المحنة، واسم الفاعل يتصدر معنى التحذير من صوب سهام الآثام التي تقذفها نحو القلوب. وما زالت نصائح الشاعر تنزل على المحبين، يسقيهم منها؛ لحرصه عليهم، وحبه لهم، **يقول في قصيدة (نفحة من الخلود):**

بئست اللحظة التي سوف يأتي
بعدها... موج حسرةٍ لطَّام
بئست الشمعة التي تنجب الليل
وبئست ما تنسج الأوهام
يا أخي طهّر الفؤاد، وعجِّل
قبل أن تنقضي بك الأعوام(٣٨)

إنَّه لا شرعية لأي نظرية جمالية في الأدب ما لم يتخذ من مضمون الرسالة الأدبية أسًّا لها؛ بل أهم قواعدها التأسيسية. كما أنه لا يمكن الإقرار بأي قيمة جمالية للأثر الأدبي ما لم نشرح مادته اللغوية على أساس اتحاد منطوق مدلولاتها بملفوظ دوالها(٣٩)، وهنا تتعاضد اللغة؛ لإبراز التعابير الجمالية فالفعل الجامد الذي يكرِّس بدلالته البائسة بشاعة صوت الماضي، في لحظةٍ ما عاد ينفع فيها الندم، ولا الرجوع إلى الوراء، فبئست تلك اللحظة الجامدة التي تأتي بعدها أمواجٌ هادرة محملة بآثام الأيام الخوالي الماضية، فتعقبها الحسرات، واللطمات، والأحزان، والدموع، والصرخات. وبئست الشمعة التي تلد الظلمة، فلا تكاد تظهر لمعة لهب، وبئست الأوهام التي تنسج عاقبة سيئة، ويبدأ نداء الأخوة ناصحًا بالتزام طهارة الفؤاد قبل فوات الأوان، وذهاب العمر، وانقضاء السنون.

القيمة السادسة: التواضع وخفض الجناح:

لا ثراء يبقى، ولا منصبٌ (فخمٌ)
ولا شهرةٌ... ولا أزلام
كل هذا الذي تراه حطامٌ
وعجيبٌ ألا يهون الحطام(٤٠)

تعود النفس لفطرتها في كثير من النهايات، وهنا يتردد النفي متعاضدًا مع الصور النفسية القاتمة التي سبقت؛ حتى يبدأ نفي بقاء الثراء والمنصب الفخم

والشهرة والأقسام والأزلام حتميٌّ، وهي حطامٌ للرائي الحاذق، والذكي اللبيب، الذي يتطلع ببصره وبصيرته، والعجب إن كانت الدنيا فانية بكل ما تحمله من لذات الثراء والمنصب والشهرة والزلم وما زال صاحبها يتمسك بها، ويرغب عن الآخرة الدائمة بسببها. وفي ذلك دعوة إلى تركها، وعدم الاغترار بما فيها؛ لكونها زائلة، مع دعوة تعريضية بالإقبال على الآخرة الباقية.

القيمة السابعة: القناعة والرضا بما تيسر:

إنَّ التصور الذي يقدمه الشاعر عن القناعة والرضا بما قدَّره الله يدفع النفس جهة الاستقرار والهدوء، وتخفف من جموحها الذي قد يطال حقوق الآخرين، وهو بذلك يخالف موجة الحداثة التي تنعت القناعة والرضا بأنهما سبب ضياع البلاد والعباد، كما رأى (نزار قباني) أنَّ الهوان والخذلان الذي يعاني منه المجتمع العربي المعاصر جاء بسبب الرضا بالقضاء والقدر والتسليم لهما في جميع الأمور التي تلامس واقع المجتمعات العربية[٤١]، ويبرز هذا التصور الفاسد من خلال قصيدته (خبز وحشيش وقمر)[٤٢]:

ما الذي يفعله فينا القمر
فنضيع الكبرياء
ونعيش لنستجدي السماء
ما الذي عند السماء
لكسالى ضعفاء
حنانيك يا رب يا ذا الجلال
ويا واهب الطفل سحر الوداعة
حنانيك يا باسط الرزق حتى
لمن يجحد الفضل في كل ساعة[٤٣]

يقول **(ابن طباطبا)**: إنَّ للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها[٤٤]، ويتمثل ذلك في دعاء شفوق ينطق باسم الفعل **(حنانيك)** متوجهًا به عبر النداء إلى الرَّب الكبير صاحب الجلال، الواهب الوداعة والبراءة والفطرة في الطفولة، وخالق البدر المكتمل، أمارة قبول العبد الراجع إليه بتوبة صدوقة، والناثر النجوم منارات اهتداء السائلين، وطوق المنعة من نزلات الشياطين، وباسط الرزق الفائض الذي يغمر العين، ويملأ اليد؛ لأنَّ الثقة بمنحه وعطائه وبسط آلائه، عظيمة بعظمته، وكبيرة بكبريائه، سبحانه وتعالى.

القيمة الثامنة: الصبر عند المكاره:

تمتلئ حياة الإنسان بالكدرات، ولا تسلم من العقبات والمعيقات والهموم والمشكلات؛ لذا كان التحلي بخلق الصبر ضروريًا لا سيما في حال عجز الإنسان عن

المواجهة إلى أن يتحقق بها الفرج، عندئذ تغيب الكدرات، وتندمل العقبات، وتزال المعيقات، وتتلاشى الهموم والمشكلات، والشاعر في حديثه عن الأخلاق الحكمية كالصبر والقناعة والخضوع لله وغيرها إنما يجمع معها الشجاعة والإقدام من جهة، ويجملها بنظرة شمولية، فيصور الصبر على المكاره ضربًا من ضروب الإعداد لمواجهة الخصوم، وفي هذا يخالف ما دعا إليه **(أدونيس)**، من أنَّ الشاعر العربي الجديد يتخلى عن أخلاقية الحكمة – القناعة والصبر والخضوع للقضاء والقدر – في الشعر القديم، واستبدالها بأخلاقيات – التساؤل والبحث والقلق والخوف واليأس والرجاء والأمل والتردد(٤٥)، وهذا ما أكده الشاعر **في قصيدته التي بعنوان (نشيد للقدس)، فيقول:**

صبرًا على ليل الطغاة
فإنَّ بعد العسر يسرا
فالخيل معقود بها النصر...
الذي يجتاح كفرا(٤٦)

يقول **(أندريه بريتون)**: "إنَّ العجيب جميل دائمًا، وكل ما هو عجيب جميل؛ بل إنه لا جميل في الدنيا إلا العجيب"(٤٧)، وهنا في تقانة التناص تتجلى صور جميلة تأخذ يد الماضي فتسوقه إلى الحاضر كي تقدمه للمتلقي في مطلع أخلاقي يؤكد خصلة الصبر على مواطن الضعف، وبدء الاستعداد والإعداد؛ لمواجهة ظلمة الطغاة، فعقبى الصبر **-حتمًا-** ما هي إلا انفراج الكربة، وتبديل الضعف قوَّة، والعسر يسرًا، ويتردد نائب المفعول المطلق ذو الفعل المحذوف مؤكدًا تأكيدًا مضعَّفًا **بـ(إنَّي)** سماع التهليل الذي يملأ أرجاء البيت بصوت الزائرين صوت الأسود، ويمتد بصر الشاعر ليرى جباه الساجدين المؤمنين متعلقةً في الجوزاء، متباهيَةً إلى عنان السماء، مفتخرةً بما ترى، وهؤلاء هم المجاهدون الثائرون، ممَن تنعقد لهم الخيل بنواصيها المنصورة التي تجتاح الكفر، وتتمرد عليه، وتغلبه عن قوسٍ لا يلتوي.

القيمة التاسعة: التفاؤل والأمل:

للتفاؤل في النَّفس حظٌ من القبول، ونصيبٌ من الارتياح، وهو مقدمة السعادة وتهيئتُها، ومطلبٌ أساسيٌّ من مطالبها، وبِدَارُ الشاعر في تغذية النفوس بها رسَّخ الطمأنينة، وأكَّد سلامة الخطو والمسير، وعلى شكل تساؤلات يثير الشاعر جملة من التصورات التي يأمل اقتراب وقوعها رغم

وجود عوائق في نفسه تستدعي استبعادها، **ففي قصيدة (تساؤلات)، يقول:**

أصحيحٌ ما قيل يا بلد الطهر
بأنَّ السلام صار قريبا
إنني أرسل الكلام وأدري
أنَّ فيا أقول شكًا مريبا(٤٨)

إنَّ "وجود صور لا شعورية تكمن في العمل الفني، وتأتي هذه الصور من المستويات اللاشعورية للعقل"(٤٩)، ومنها صورتان تفترقان في الملامح، صورة الماضي الذي استدعاه من مكانه، حيث أوهم نفسه أنَّه واقعٌ وحالٌّ، ثم يعترف أنَّه ساق هذا الكلام وهو شاكٌّ مريب، وبدأ الشاعر يتساءل كثيرًا في مقطوعته عن حال المسلمين وواقعهم، فيسلِّي نفسه بالأمل؛ فيصوِّره كما هو في الحقيقة التي ينبغي أن تكون في الواقع، كما يُسلي نفسه متفائلًا بما تصوره حاصلًا، وهو ذو علم ودراية بأنَّ الواقع يخالف تفاؤله، وأمله، ويساوره الشك والريبة من استقامة الدين والدنيا والحاكم والمحكوم، وإعمال الحق والعدالة، وإذا به يعترف في البيت الأخير أنَّ ثمة فجوةً بين ما يأمل به والواقع، راجعًا إلى الوهم الذي يسيطر عليه من أنَّ صدر الإسلام الأول، وعهد تمكين الدين لم يعد قائمًا، فلا يشتم له رائحة، ولا يذوق له طعمًا، مفترِضًا لو كانت الزعامة للإسلام الحق؛ لتغير العالم، وتبدل الحال إلى ما هو أصلح للإنسان، ويعترف الشاعر في النهاية أنَّ الإجابات المتفائلة بعودة الإسلام والدين والتمكين هي مجرد توقعات وأوهام، مشكوك في صحتها، يصيبه الريب من وقوعها، وبذلك هو يعكس الحالة الشعورية التي تصيب معظم مسلمي العالم.

القيمة العاشرة: أخلاق الفتاة المسلمة في الحياة:

يبرز دور المسلمة في الحياة كونها أمًّا وأختًا وزوجةً وابنةً، فهي ركنٌ أساسٌ في بناء الأسرة، التي تعدُّ مكونًا مهمًا من مكونات المجتمع، والشاعر **في قصيدة (المرايا – إلى كل فتاة تؤمن بالله)**، يكشف عن قيمتها، وأثرها في وضوحٍ وجلاء، وإن كانت مهمة العمل الفني ليست "البرهنة على شيء أو إثبات قضية أو إيضاح حقيقة معينة، وإنما المفروض فيه أن يكون موجودًا في ذاته ولذاته"(٥٠)، **يقول:**

إنني ضقت بأبناء الدجى... ضقت كثيرا
إنني ضقت بهم...صمًا وعميانًا...وعورا (٥١)

لم ينس الشاعر قوارير الحياة الرقيقة، فلقربها من نفسه، وحضورها في ذهنه، ناداها من غير أداة، بلفظ (**أختاه**)، ولم يكتف بالتصريح عن هذا القرب الحسي والمعنوي؛ بل أكده بنعتها بالفضلى، صاحبة النهج الأمثل، قاصدًا نهج الإسلام العظيم؛ لثقته بها، وإعجابه بشخصيتها، وتفاؤله بقيامها بواجبها، ومع ذلك فقد نازعه الخوف عليها فنهاها عن الاتصاف بالسذاجة التي تجعل منها مخدوعةً بما تتلقفه من ثقافاتٍ تبعدها عن أصالتها، ويحذِّرها مما يعترضها من أدعياء يدَّعون البراءة والنقاء، فيتغزَّلون بها، ويسمعونها عسل الكلام، وهو في الحقيقة وَهْم وسراب.

هذي البضاعة كلُّها كسدت وهذي الأشكل

ولقد تنكرت الوجوه فكل وجه... أفعل (٥٢)

بدأ الشاعر مقطوعته بجملة إخبارية يشير من خلالها إلى حالة التضجر من الواقع المخزي، مؤكدًا في إعلانه كساد بضاعة المخادعين، رغم أشكالها المتنوعة، وصنوفها المتكاثرة، ويؤكد ضمنًا أنها ألاعيب مكشوفة، لا يجهلها ذو لب، وملامح بضاعتهم وغوايتهم ما عادت خفية، فالطبل، والزمر، والتنكر، وغيرها لم تعد متسترة لدى عامة المسلمين.

يا أخت لا يغررك ما هتفوا له أو هللوا

كلُّ الفقاقيع التي لمعت هناك... سترحل (٥٣)

يؤكد الشاعر في ندائه على أخته في الإسلام نهيه لها عن الاغترار بمن يهتفون لها زيفًا، أو يهللون بالباطل لأجلها، ويزعمون أنهم دعاة خير، وباحثون عن حقوقها، ومدافعون عنها، كاشفًا حقيقة دعواهم، أنَّها مجرد فقاقيع، لا فائدة منها، ولا خير فيها، سوى لمعانها الخاطف الذي سرعان ما يتلاشى وينتهي. ويخرج من عالم الفتاة المسلمة، إلى المرأة المسلمة المكافحة التي شهد التاريخ بعطائها منذ تاريخ الإسلام الأول، سواءً كان عطاء العلم، أم سقيا الجرحى في الحروب، وخدمتهم، والقيام على شأنهم، أو مناصرة الرجال، ودفعهم للإقدام والاستبسال، وغيرها مما كان لها فيه دورٌ لا يُنكر، ووجودٌ لا يُجهل، ويُجلِّي الشاعر أمامها حقيقة أعدائها في صورة استعار لها الفقاقيع الهوائية التي لا فائدة منها، وسرعان ما تتلاشى بعد لمعانها الخاطف، واستعار لها ركب المسافر الراحل عن ميدان العفة حيث لا قوة له على البقاء فيه، وهذه الصور التشبيهية عادة ما تتم "وفقًا لمشاهدة الواقع، فمهمته أن يزيدنا إحساسًا بالصورة، فإذا أخفق فهو فضول

وتعثر يعوق عن الغاية، ولا يؤدي إليها[٥٤]، وفي قصيدة **(أيها الشيخ)**، يبدأ بعرض صورةٍ مشرقةٍ لها، **فيقول:**

هنَّ رمز الكفاح في زمن ذل
فكافح تحت اللواء كميا
ركبت في قطارهم وتولت
والخفافيش تنهش اللحم نيـّا[٥٥]

لم يعد ستر حقيقة دور المرأة في الحياة ذا جدوى. فالشاعر في مقطوعته يُهيج نوازع الشرف والكرامة التي حملتها المرأة العربية والإسلامية بإباء وشموخ وفخار، مصرِّحًا أنَّ الأنثى رمز الكفاح وعنوانه، فهي أخت الثائر، وأم المناضل، وابنة المجاهد، وزوجة المضحي، في زمن الذلة والمهانة، والانكسار المعنوي للهيبة العربية، والشخصية المسلمة، والاستمرار في الكفاح تحت لواء الشجعان أمرٌ يعود إليها بالرفعة، دون أن تلبيَ لهم مطلبًا من نزع الحجاب، وتمزيقه وهو الحارس لها، والمصون لعرضها، والمسدل فتنتها، التي تستفز النفوس، وتجلب السفهاء، فلكم هزمت بصون شرفها، ولبس جلبابها، ووضع حجابها، مع التزامها بدينها وعقيدتها، العدوَّ المتربص بها، وعدوَّ الدِّين الذي يحارب آيات الله تعالى، ولكم دحر المؤمنون السابقون بهيبتها البغي والفساد، وقد أكَّد الشاعر حرص أعداء الدين بادعاء صون عزتها ورفعتها أنها تبلغ الشأن العظيم، وعليها أن ترفض هدي السماء ورسالتها السَّنية، وقدَّموا لها بطاقة دعوة منطوقةً أو مكتوبةً، مزينةً بالورود، تجذبها وتثير إحساسها؛ لتركب في قطار البغاة وتتولاهم؛ ولتكون ضحية خفافيش الظلام المتآمرين على شرفها وعفتها. وقد حشد الشاعر تراكيب تواشجت معًا فشكلت لوحة نازفة للمرأة المسلمة اليوم، وهي تركب في قطار الأوغاد في ظلامٍ دامسٍ تحوطها خفافيش تنهش عرضها وكرامتها.

نتائج البحث:

خلُص الباحث إلى مجموعةٍ من النتائج، منها:

أولًا: استكناه جملة كبيرة من القيم الأخلاقية الجميلة الأخاذة التي بثَّها الشاعر في أعماله الشعرية، والتي توزعت إلى قيم مستقاةٍ من الدين الإسلامي، وأخرى من العادات والتقاليد المجتمعية الأصيلة، وهي سلوكيات يتحلى بها المسلم في الحياة.

ثانيًا: توزعت القيم الأخلاقية في القصائد، فكان المستخرج من نصيب القيم

الإيجابية حوالي (٩٠٪) من مجمل القيم عامة.

ثالثًا: تشكلت القيم الأخلاقية في الأعمال الشعرية، فكان منها ما يخصُّ الصفات الفردية، ومنها ما يختص بالسلوك الجماعي، وفي كلٍّ منها تفريعاتٌ من القيم الجميلة التي بثَّها الشاعر؛ لكونها أشغلت وجدانه، وألهبت عاطفته، بسبب ما يعانيه المسلمون اليوم من ضعفٍ وقهر، وتراجع قيمي واضح.

رابعًا: كشف البحث عن صورة القيم الأخلاقية الجمالية، كما رسمها الشاعر بمعالمها الجاذبة، مع توضيح أبعادها الجمالية؛ فكانت حافزًا مشجعًا يمكن التزود منها؛ لمواجهة عواض الحياة، واستدامة الصلاح، وانتهاج الخير والبر سلوكًا.

خامسًا: انكشفت للباحث صور قصائد الشاعر، والتراكيب اللغوية التي استخدمها، فرآها قد تزيَّت بزيٍّ فنيٍّ مؤثرٍ وجذاب، فالشاعر لم يعتمد على الأسلوب الخطابي التقريري في التوجيه والنصح، وإسداء الحكمة؛ ورشح السلوح الحميد الدال على الخير؛ إنما اعتمد أسلوبًا فنِّيًا رشيقًا، له وقعٌ في الخاطر، وطنينٌ في النفس.

سادسًا: اختلطت المعاني الأخلاقية التي ساقها الشاعر وتلاحم بعضها ببعض؛ لكونها خرجت من معينٍ واحد، ومصادر أصيلة، منها: العقيدة الإسلامية، والأعراف والتقاليد المجتمعية المحافِظة، وذلك وفق ما يحبه الله تعالى ويرضه، دون أن يلوي عن تعاليم الإسلام، أو أن يجهل شيئًا منها.

توصيات البحث:

يوصي الباحث بعد اطلاعه على الأعمال الشعرية بمجموعة من التوصيات، منها:

أولًا: تتويج الشاعر بالذكر الحسن، والثناء الذي يستحق، وذلك لتركيزه على الفضيلة، التي حمل للإنسانية فيه أسمى المعاني التي تبني الفرد والجماعة.

ثانيًا: تضمين بعض قصائد الشاعر التي تزخر بالقيم السلوكية في الكتب المدرسية والجامعية؛ لتكون أنموذجًا فنيًا يعرضها بحلتها الجمالية، مع تعزيز الأعمال الشعرية للشاعر من خلال دراسة المزيد من أنواع القيم الأخرى،

كالقيم الأخلاقية، والوطنية، والجمالية، وغيرها.

ثالثًا: بثّ المعاني الأخلاقية وقيمها بصورها الجمالية المؤثرة مما ذكره الشاعر في أعماله الكاملة، وذلك عبر وسائل الإعلام المختلفة؛ لكي تأخذ حظَّها من التفاعل، وتغيير واقع الأمة المسلمة الذي يشهد تراجعًا في القيم السلوكية وغيرها.

المصادر والمراجع:

- الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي، ليبيا – تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧م.
- الأعمال السياسية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، ط٢، ١٩٩٩م.
- الأعمال الشعرية الكاملة، محمود مفلح، مؤسسة إحياء التراث، وتنمية الإبداع، ط١، ٢٠١٧م.
- تعريف الفن، هربرت ريد، ترجمة: إبراهيم إمام، ومصطفى رفيق الأرنؤوطي، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢م.
- الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، طه عبد الرحمن، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م.
- دراسات في الشعر العربي – تحليل لظواهر أدبية وشعراء – محمد مصطفى هدارة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٢م.
- الرحلة الثامنة، جبرا إبراهيم جبرا، صيدا، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧٢م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، إسماعيل بن حماد، دار العلم للملايين.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، عصفور جابر، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م.
- عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق: طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى.
- فن التشبيه، علي الجندي، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط١، ١٩٥٢.
- في النقد التطبيقي، عبد القادر بسيم، القاهرة، دار المعالم، ط١، ٢٠٠٥.

- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب **(أبو طاهر/ مجد الدين)**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م.
- قاموس المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٥، ٢٠١١م.
- القدس في الشعر العربي الحديث – دراسة تحليلية – يوسف حطيني، مؤسسة القدس الدولية، دمشق، ٢٠١٢م.
- لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم بن علي **(جمال الدين)**، مطبعة بولاق، ١٣٠٠ه.
- لغة الشعر العربي، عدنان حسين قاسم، القاهرة، مدينة نصر، مطبعة الدار العربية، ٢٠٠٥م.
- محاضرات في عنصر الصدق في الأدب، محمد النويهي، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩م.
- مشكلة الفن، زكريا إبراهيم، القاهرة، مكتبة مصر، ط٥، ١٩٧٥.
- النقد الاجتماعي في الشعر العربي الحداثي – الرؤية والأبعاد – فيصل المتعب، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مخطوط.
- النقد والدلالة – نحو تحليل سيميائي للأدب، محمد عزام، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م.

الهوامش:

١) لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم بن علي (جمال الدين)، مطبعة بولاق، ١٣٠٠ه، مادة (قوم)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، إسماعيل بن حماد، دار العلم للملايين، مادة (قوم).

٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (أبو طاهر/ مجد الدين)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م، مادة قوم.

٣) قاموس المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٥، ٢٠١١م، مادة قيم.

٤) الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، طه عبد الرحمن، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٦، ٦٨.

٥) دراسات في الشعر العربي – تحليل لظواهر أدبية وشعراء – محمد مصطفى هدارة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٢م، ٢/ ١٦٧.

٦) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٢٦.

٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٢٦.

٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٣٧٩ – ٣٨٠.

٩) لغة الشعر العربي، عدنان حسين قاسم، القاهرة، مدينة نصر، مطبعة الدار العربية، ٢٠٠٥م، ١١٠.

١٠) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٨٣.

١١) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٨٣.

١٢) لغة الشعر العربي، عدنان حسين قاسم، القاهرة، مدينة نصر، مطبعة الدار العربية، ٢٠٠٥م، ٢١٤.

١٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٨٥.

١٤) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٨٣.

١٥) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٨٥.

١٦) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٩٨.

١٧) دراسات في الشعر العربي – تحليل لظواهر أدبية وشعراء – محمد مصطفى هدارة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٢م، ٧٠.

١٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١١٠.

١٩) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٣٣.

)٢٠ الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٨١.

٢١) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٨١.

٢٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١١٤.

)٢٣ عبد القادر، بسيم، في النقد التطبيقي، القاهرة، دار المعالم، ط١، ٢٠٠٥، ١١٣

٢٤) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٨١.

٢٥) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٣٢.

٢٦) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٩٨ – ٩٩.

٢٧) القدس في الشعر العربي الحديث – دراسة تحليلية – يوسف حطيني، مؤسسة القدس الدولية، دمشق، ٢٠١٢م، ١٧٥.

٢٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٢٩٧.

٢٩) القدس في الشعر العربي الحديث – دراسة تحليلية – يوسف حطيني، مؤسسة القدس الدولية، دمشق، ٢٠١٢م، ١٢.

٣٠) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٣٠.

٣١) عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م، ٣٨.

٣٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٧٤.

٣٣) عصفور، جابر، الصورة الفنية، ٦١.

٣٤) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١١٠.

٣٥) محاضرات في عنصر الصدق في الأدب، محمد محمد النويهي، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩م، ١٧.

٣٦) النقد والدلالة – نحو تحليل سيميائي للأدب، محمد عزام، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م، ١٥٥ – ١٥٦.

٣٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٧٧.

٣٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٧٨.

٣٩) الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي، ليبيا – تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧م، ١١٨.

٤٠) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٧٨.

٤١) النقد الاجتماعي في الشعر العربي الحداثي – الرؤية والأبعاد – فيصل المتعب، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مخطوط، ١١١.

٤٢) الأعمال السياسية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، ط٢، ١٩٩٩م.، ٣/ ١٨ – ١٩.

٤٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٩٢.

٤٤) عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق: طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، ١٦.

٤٥) مقدمة للشعر العربي، أدونيس، علي أحمد سعيد، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، د ط، ١٩٩٦م، ١٢٨.

٤٦) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٩٣.

٤٧) الرحلة الثامنة، جبرا إبراهيم جبرا، صيدا، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧٢م.

٤٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١٠٨.

٤٩) تعريف الفن، هربرت ريد، ترجمة: إبراهيم إمام، ومصطفى رفيق الأرنؤوطي، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢م.٥٢.

٥٠) مشكلة الفن، زكريا إبراهيم، القاهرة، مكتبة مصر، ٢٥٩.

٥١) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٧٥ – ٧٦.

٥٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٧٥ – ٧٦.

٥٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ٧٥ – ٧٦.

٥٤) فن التشبيه، علي الجندي، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ٢/ ٥١.

٥٥) الأعمال الشعرية الكاملة، ١/ ١١١.